لا حدود لجرائم نظام الأسد... تجارب السلاح الكيميائيّ على البشر!

ملف خاص

عام 2003، وفي مقابلةٍ إذاعية، أماط الناشط السوريّ الملتبس نزار نيّوف اللثام عن معلوماتٍ خطيرةٍ حصل عليها من العميد الركن عصام أبو عجيب، الذي كان معتقلاً في سجن صيدنايا بأمرٍ من حافظ الأسد، بسبب اعتراضه في اجتماعٍ عسكريٍّ عالي المستوى على جريمةٍ مذهلةٍ كانت المخابرات الجويّة تقوم بها، وهي إجراء تجارب للسلاح الكيماويّ على البشر!

وفيما يلي تعرض مجلة "عين المدينة" شهادةً لواحدٍ من القلائل الذين اطلّعوا على هذه التجارب الفظيعة التي أجريت على المعتقلين السياسيين من سجن تدمر، ابتداءً من العام 1985 وحتى العام 1988.

رفض الشاهد أن يكشف عن هويته بانتظار الوقت المناسب، حسب تقديره، لكشفها. لكنه سمح لنا بأن نشير إلى أنه ضابطٌ سابقٌ في المخابرات الجوية، متحدِّر من الطائفة العلوية،عمل في الوحدة 417 التابعة لإدارة المخابرات الجوّية لسنواتٍ عدة، كان شاهداً ومطلعاً خلالها على أفظع الجرائم التي ارتكبت في عهد حافظ الأسد، عندما استخدم البشر كفئران تجارب للأسلحة الكيماوية.

الموقع 417:

في عـام 1985 بدأت التجـارب الأولى لاستخدام البشر كعيِّنات مخبرية، وهم من معتقــلي سجن تدمر حصراً، ومن سجناء الإخوان المسلمين فقط، على غير ما ذكرت تقارير "المجلس الوطنيّ للحقيقة والعدالة والمصالحة في سورية"، الذي يديره نيّوف، من أن المعتقلين أتوا من سجونٍ مختلفةٍ وبتهمٍ ودعاوى متعددة. وكان عام 1988 هو العام الأخير الذي تجرى فيه التجارب في هذه الوحدة التي تحوّلت، ابتداءً من عام 1990، إلى مستودعٍ عديم الأهمية يتبع إدارة القوى الجوّية، بعد أن أجريت تغييراتٌ كثيرةٌ فيه، بإنشاء هنغاراتٍ جديدةٍ، وتغيير بعض الملامح العامة الخارجية له، مما يصعّب عملية تحديد موقعه بدقّة اليوم.

الطريق إلى موقع الوحدة 417:

على طريق دمشق تدمـــر، في منطقة أبو الشامات، وقبل استراحة الصفا، المعروفة باسم مالكها ذو الهمة شاليش، بمسافة 5-6 كم، ننحرف إلى اليمين سالكين طريقاً ترابياً لمسافة 8-10 كم، مع تعرُّجات وانعطافاتٍ إلى اليسار، مما يجعل موقع الوحدة بين موقع أبو الشامات وبين معمل إسمنت البادية الذي أنشئ قبل 10 أو 11 عاماً من الآن، بعد أن توقف العمل في الوحدة بسنواتٍ كثيرة. وسابقاً، كان يمكن للشخص أن يشاهد الأشجار الكثيفة العالية المزروعة في مقدّمة موقع الوحدة إذا وقف على طريق دمشق تدمر عند استراحة الصفا أو ذو الهمة، وأولاها ظهره ونظر بشكلٍ عموديٍّ على الطريق، مع انحراف بدرجاتٍ قليلةٍ إلى اليمين، إذ سيشاهد أعلى الأشجار. ولا يمكن تحديد الموقع بدقةٍ عبر برنامج google Earth بسبب حدوث بعض التغيرات في المنطقة.
وربما، وبحسب تقديري وفهمي لسلوك إدارة المخابرات الجوية، فإنها سمحت بإقامة معمل إسمنت البادية –يقال إن رامي مخلوف شريكٌ رئيسيٌّ أو مالكٌ له- للتشويش وصرف الانتباه عن هذه المنطقة الغامضة بعد إيقاف التجارب فيها بسنواتٍ كثيرة، بجعلها منطقةً مطروقةً من قبل العاملين في المعمل. وربما لتلويث الموقع بملوِّثات مبرِّرة مثل ملوّثات معمل الإسمنت.

وصف الموقع من الداخل:

أبعاد الموقع، بحسب تقديري، 3×1.5 كم. في الجزء الأوّل المتاخم للباب الرئيسيّ توجد أشجارٌ كثيفةٌ ثم مسافةٌ فتأتي الهنغارات وهي خمسة أو ستة هنغارات حسب ما أذكر في العام 1985. بعضها هنغارات توقيف المعتقلين قبل يوم التجربة، والبعض الآخر هنغارات تخزين. وتتراوح أبعادها بين 20 إلى 30 متراً. أما الهنغار الأهم فهو هنغار المخبر الخاصّ بالتجارب، وتقدّر أبعاده بـ 15×8 م. وله ستة شبابيك زجاجية، تفتح وتغلق من الخارج. وله بابان بنفس طريقة الفتح والإغلاق، يُستخدم أحدهما في الأحوال العادية والآخر في حالات الطوارئ.

سير التجربة:

قبل كلّ سلسلة تجارب، تتوجّه سيارات المخابرات الجوية، بإمرة ضابطٍ من المجموعة العاملة في ملفّ التجارب، إلى سجن تدمر، مصطحبةً باصين أو ثلاثةً بسعة 40 راكباً، أو أربعة أو خمسة سرافيس (مازدا حمراء) بسعة عشرين راكباً. وهناك يطلبون من مدير السجن تسليمهم العدد الذي يريدون، فيقوم باختيارهم عشوائياً، لتعود بهم القافلة إلى الوحدة 417 ويلاقوا حتفهم هناك.
يوضع السجناء في أحد الهنغارات المخصّصة. وفي حالات البرد القارس يُنقلون إلى سجن الوحدة الواقع تحت مبنى القيادة، خوفاً من موتهم أو مرضهم مما يؤثر على ظروف التجربة. ويُعاملون في الأيام التي تسبق التجربة معاملةً حسنةً من ناحية الطعام وعدم الضرب أو التعذيب، لكن الأيام القليلة التي يأكلون فيها ثلاث وجباتٍ هي مدٌّة غير كافيةٍ لتحسّن حالتهم الصحية المتدهورة نتيجة الوضع القاسي في سجن تدمر. وفي اليوم المحدّد لإجراء التجربة ينقل السجناء إلى هنغار (المخبر) ويجمعون في آخره. ويدخل إليهم أحد الضباط ويخبرهم بلطفٍ شديدٍ أنه سيُعاد التحقيق مع كلّ واحدٍ منهم بعد أيام قليلة، وبعدها سيطلق سراحهم ويعودون إلى بيوتهم. ثم يخبرهم -كملاحظةٍ جانبيةٍ- أنه سترمى الآن في الهنغار قنبلة غازٍ مسيلٍ للدموع.
وأن عليهم -فور إطلاقها- أن يركضوا نحو أطباق البصل القريبة منهم في الهنغار -البصل من اعدادات التجربة- ليستعينوا به على تخفيف أثر الغاز. ينسحب الضابط بلطفٍ. وبعدها مباشرةً يلقي أحدهم قنبلةً سامةً –بعد أن يرتدي اللباس الخاصّ- ودون أن يدخل إلى الهنغار، ثم يغلق الباب من الخارج.
ويتابع ضباط المخابرات الجوية التجربة عبر النوافذ الزجاجية المغلقة بإحكام. وخلال أقلّ من دقيقةٍ يمرّ المعتقلون بحالة اختلاجٍ رهيبةٍ ثم لا يلبثوا أن يتوقفوا عن الحراك، دون أن يتمكن أيٌّ منهم من الوصول إلى البصل. خلال ذلك الوقت يصمت علي مملوك –قائد فرع تحقيق المخابرات الجوية في المزّة، والمكلف بإدارة التجارب في حينه- وقد يبتسم ابتسامةً خفيفة في بعض المرات.
وإلى جانبه الضباط المسؤولون عن الملف، الذين يبدون سعداء سعادةً بالغة، وخاصّة النقيب (ثم الرائد) همام زينة، الذي لا يتوقف عن الضحك والصراخ في حالة فرحٍ غريبة. وكان يحضر التجربة كذلك بعض خبراء البحوث العلمية العاملين في ملف السلاح الكيميائيّ، يدوّنون ملاحظاتهم بدقة. وأذكر منهم خبيراً طويلاً ونحيفاً، أسمر اللون، لا يحبّ الكلام.
بعد انتهاء التجربة بساعاتٍ، وبعد تهوية الهنغار، تنقل الجثث إلى الجرّافات التي تتولى حملها على دفعاتٍ إلى حفرةٍ كبيرةٍ معدٍّة من قبل. وتمّ دفن جميع الجثث في مساحةٍ تبعد 1 كم جنوب الوحدة، بجوار "شعيبٍ" أو مجرىً مائيّ.
ويـعدّ يــوم التجربة يوم احتفالٍ في الوحدة 417، إذ تُفتح زجاجات الويسكي ويُجلب الطعام الفاخر وتُلقى النوادر والتعليقات على

العمل والتجارب. وكثيراً ما تتردد عباراتٌ من نحو:
"قتلتن كلّن مثل ما تقتل الذبان... البيف باف".
"الله لا يـردّن.. يحـــرق قـــرعة بيّن كلّن إخونجية".
ونادراً ما يخرج ناجٍ واحدٌ أو اثنين من هذه التجارب، فيُسجن في سجن الوحدة –انفرادياً- حتى يقترب موعد التجربة القادمة فيُضمّ إلى العيّنة الجديدة ليَلقى حتفه معها. والغريب هو الاستسلام الذي يبديه هؤلاء لمصيرهم، إذ لا يُبدون تذمراً أو أياً من محاولات الفرار التي يقدم عليها المقبلون على الإعدام. إنما يتحرّكون بهدوءٍ إلى الهنغار، ويصغون إلى الشخص الذي يعدهم بإطلاق سراحهم بعد "تجربة الغاز المسيل للدموع". والمعتقل الناجي من المرّة الماضية يعلم أن هذا كله كذب، لكنه لا يبدي، في معظم الأحوال، أيّة ردة
فعلٍ خاصّة.

***

أجري العدد الأكبر من هذه التجارب عام 1985، إذ بلغت حوالي 30 تجربة كنت شاهداً على عشرين منها، وراقبت المساجين عبر النوافذ في سبع مرّات منها. وكانت التجارب تقام وفق برنامجٍ يتمّ تغييره بحسب نتائج كلّ تجربة. ولكن، بعد سلسلةٍ من التجارب على نوعٍ من الأنواع السامة، نتوقّف لمدّة شهرٍ أو شهرين ثم تعاد التجارب من جديد، وهكذا. أقدّر عدد الأشخاص الذين خضعوا لهذه التجارب عام 1985 بحوالي 500 شخصٍ، كلهم، كما أسلفت، من سجناء تدمر من الإخوان المسلمين.
بعد كلّ تجربةٍ تُدوّن النتائج بدقةٍ، وتُرفع في تقريرٍ خاصٍّ إلى الإدارة، ويُوصف سير التجربة بـ"أزهقت تجربة اليوم 15 روحاً" في توريةٍ عن الروح البشرية إلى أرواح الحيوانات التي جرت العادة أن تكون عينات اختبارٍ لمثل هذا النوع من التجارب. والسبب في هذا التمويه هو الاحتياطات الأمنية المشدّدة. ويُعاد في كلّ مرّة إعداد الخلطات وتغيير نسبها وأوزانها، وكذلك إدخال مواد جديدةً وفق التعليمات المدوّنة في جداول دول المصدر؛ وهي الاتحاد السوفييتي ثم بيلاروسيا وأوكرانيا؛ إيران؛ كوريا الشمالية؛ ألمانيا الشرقية؛ فرنسا (فقد قرأتُ في إحدى المرّات تنبيهاتٍ فرنسيةً بعدد كلماتٍ قليلٍ على صندوقٍ يحوي مادة VX القاتلة).
وبعد كلّ سلسلة تجارب على نوعٍ معيّن أو خلطةٍ معيّنة تُجرى تجربةٌ نهائيةٌ تحضرها شخصياتٌ كبرى مثل اللواء محمد الخولي، اللواء علي دوبا، ضباط القصر الجمهوريّ المكلفين بمتابعة الملف.
في عام 1986، وبعد عامٍ حافلٍ من التجارب الناجحة التي تفوّق فيها خبراء المخابرات الجوية ومركز البحوث العلمية، الذي يعدّ العقل العلميّ لهذا الملف وشريك المخابرات الجوية فيه، على دول المصدر بابتكاراتهم وتعديلاتهم الخاصة؛ تقلّص عدد التجارب إلى النصف أو أقلّ بالمقارنة مع عام 1985. وقدّر عدد الضحايا الذين خضعوا للتجارب في عام 1986 بحوالي 200-300 شخص. وكانت التجارب بمعظمها على غاز الأعصاب VX أو غاز السارين. وفي العامين اللاحقين لم يُجرَ في الوحدة 417 إلا عددٌ قليلٌ جداً من التجارب، بهدف التدقيق والتأكد. لتبدأ بعدها تجارب من النوع المسمّى بالتجارب المفتوحة التي تُجرى في الهواء الطلق، إذ يُنقل المعتقلون إلى الموقع المحدّد، وهو، منذ العام 1995، حقل الرمي التابع لمطار السيجال (المعروف بالسين) والذي يقع جنوب المطار المذكور. وصار عدد المعتقلين يرتفع إلى 50 شخصاً في كلّ تجربة. وتستخدم الطائرات في هذا النوع من التجارب، إذ تحضر القذائف إلى كلّ طائرةٍ ثم يؤمر الطيار بالإقلاع والتحليق بسرعةٍ وارتفاعٍ محدّدين والقيام بإطلاق القذائف وهو لا يعلم أنه يلقي قنابل كيمياويةً، حسبما أذكر. وأعرف طياراً من محافظة دمشق برتبة عقيدٍ شارك في هذه التجربة مرّتين وهو لا يعلم أنه يضرب معتقلين سياسيين بغازٍ قاتل. وتُعاد التجارب المفتوحة في أجواء مختلفةٍ وفي جميع الفصول وأوقات اليوم وحالات الطقس، مما يرفع عدد الأشخاص الذين خضعوا لهذه التجارب إلى آلافٍ أعجز عن تقديرها.
بعد عام 1985 بدأ العمل بإنشاء مواقع أخرى، فأنشئت كلٌّ من الوحدتين 418 و419. ثم، وفي أعوام التسعينات، أنشئت مواقع عدّة لصناعة الاسلحة الكيماوية، ولا أعلم إن كانت قد أجريت فيها تجارب كتجارب الوحدة 417. إلا أنه من المؤكد أن الوحدة 418، المعروفة اختصاراً باسمها الحركيّ في أوساط العاملين في هذا الملفّ باسم (زوبع)، قد أجريت فيها تجارب شبيهةٌ ولكن لعددٍ قليلٍ من المرّات. وفي نهاية عام 1989 بدأ العمل بموقع زوبع وتسلم رئاسته أحد ضباط علي مملوك، من العاملين معه في الملف الكيماويّ في الوحدة 417، وهو الرائد سمير لطفي.

موقع زوبع:

على خلاف الوحدة 417 تمكّنت من تحديد إحداثيات الموقع زوبع. وهي عند الباب الرئيسيّ أو مدخل الموقع: 36°45'45.08 شرق؛ 33°53'40.50 شمال. وأما الطريق إلى زوبع فهي، بالنسبة إلى ما كنا نسلكه عادةً في زياراتنا للموقع، ومن نقطةٍ معلومةٍ هي بلدة الناصرية في القلمون الشرقيّ، بعد مرورنا في الشارع الرئيسيّ التي يقسم البلدة إلى قسمين، وعن المفرق على

يسار هذا الطريق، والذي يقع جامع النور في أوله كما تبدي خرائط google Earth، ننحرف إلى اليسار ونسير مسافة 3.8 - 4 كم. ونسلك مفرقاً إلى اليسار. ثم نسير في طريقٍ داخل مواقع عسكريةٍ للدبابات والمدفعية. وبعد أن نجتازها، وبعد مسافة 6 كم، نصل إلى المدخل الرئيسيّ لزوبع.

وصف الموقع:

الشكل: صندوقٌ مفتوحٌ من جهة المدخل، تحيط به الجبال من ثلاث جهاتٍ على اليمين والأمام واليسار. وفي وسط الموقع أنشئ مجبل إسفلتٍ ومقلعٌ صخريٌّ للتمويه عن طبيعة الموقع، إذ تُشغَّل هذه المنشآت في أوقات عملنا ونقلنا للمواد وإدخال الشاحنات. على كامل محيط الموقع وأسفل الجبال تتوزّع أنفاقٌ محفورةٌ في بطن الجبال، عمق كلّ نفقٍ بين 2-3 كم. تستطيع سيارةٌ شاحنةٌ أن تستدير في ساحة النفق. وتقع المنشأة الخاصّة بمعمل زوبع تحديداً في كلٍّ من النفقين الواقعين في الجهة الأمامية اليسارية للموقع.

شخصياتٌ عملت في ملفّ التجارب الكيماوية على البشر:

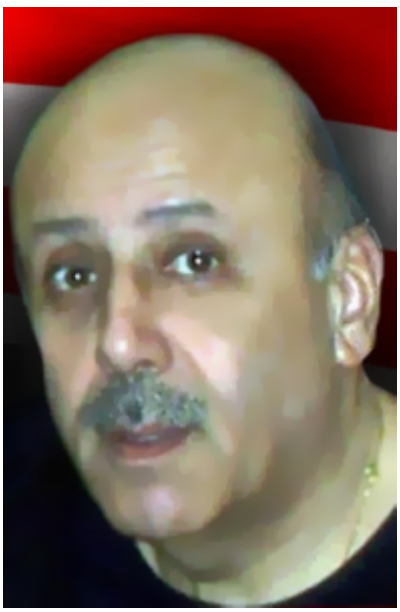

علي مملوك

الترتيب حسب سلم الرتبة والأهمية في العام 1985

1- قائد البرنامج المقدّم علي مملوك: يرجّح أن يكون خريجاً جامعياً باختصاص الكيمياء. وكان وقتها رئيس فرع تحقيق المخابرات الجوية الكائن في مطار المزة. وهو من أصولٍ علويةٍ من لواء إسكندرون، هاجرت أسرته بعد سلخ اللواء لتستقرّ في حيّ الجورة بدمشق، لينشأ كشيعيٍّ ويصدّر للعامة كسنّيٍّ دمشقيّ. وهو من مواليد 1949. مسجّلٌ في محلّة ورقم القيد ساروجة خ49. وبعد ترك مملوك لهذا الملف تسلمه العميد محمود رحمون رئيس فرع المنطقة بعد العام 2000. سنّي من بلدة خان شيخون. متزوّج من سيدة علوية من القرداحة.

2-الرائد نزيه حسون: معاون علي مملوك في رئاسة فرع التحقيق عام 1985. وهو الشخص الثاني بعد مملوك في إدارة التجارب والبرنامج الكيماويّ. استمرّ بالعمل في هذا الملف حتى العام 1990 إذ نقل إلى مطار دمشق الدوليّ ليترفع روتينياً. وهو الآن برتبة لواء. ويشغل نائب رئيس إدارة أمن الدولة. درزي/ السويداء/ قرية القريا.

3- همام زينة: بدأ العمل في الوحدة 417 برتبة نقيبٍ ثم رُفّع إلى رائدٍ أثناء عمله في الوحدة 417. وهو الآن برتبة عميد. ويشغل منصب رئيس فرع الأمن الجويّ بإدارة المخابرات الجوية. علوي/ اللاذقية/ جبلة/ بيت عانة.

4- جودت أحمد: بدأ العمل في وحدة 417 في عام 1985 برتبة نقيب –من دورة همام زيني- ورقّي إلى رائد. وصل الى رتبة عميد في العام 2003 في إدارة المخابرات الجوية. علوي/ القرداحة. ويقال إنه كان مقرَّبا جداً من باسل الاسد. وهو مصابٌ في ساقه بعد انفجار قنبلةٍ خطأً، وحالت صداقته بباسل دون تسريحه.
5- يحيى صوفان: في عام 1985 كان برتبة ملازم أوّل احتياط. وهو خريج حقوق. طلب التطوّع ورُفّع لاحقاً بشكلٍ روتينيٍّ حتى وصل إلى رتبة عقيد. سُرّح في العام 2008. ليُعاد إلى الخدمة بعد اندلاع الثورة السورية عام 2011، ويكلف بقيادة جيش الدفاع الوطنيّ في منقطة تلكلخ. قتل في شباط 2014 في بلدة الغنطو. شيعيّ من ريف حمص.
6- سمير لطفي: نقل في العام 1985، برتبة رائدٍ، من فرع مركبات إدارة المخابرات الجوية إلى الوحدة 417 وعمل فيها لمدّة سنتين. ثم تسلم رئاسة الموقع 418 أو زوبع في جبال الناصرية قيد الإنشاء آنذاك. ولد عام 1952 في حيّ عين الكرش بدمشق، لعائلةٍ علويةٍ مهاجرةٍ من اللواء، اعتنقت المذهب الشيعيّ في وقتٍ غير معروف.
7- العميد جمال حبيب: مدير الوحدة 417. قليل الأهمية والنفوذ. شركسيّ من القنيطرة.

أشخاصٌ على صلةٍ بالملفّ وعملوا فيه في أوقاتٍ زمنيةٍ مختلفة:

1- العميد علي عبد الكريم: كان قائداً للواء 155. وهو أحد المكلّفين بالسفر إلى الخارج لأعمالٍ خاصّة بملفّ السلاح الكيماويّ. عمل، منذ عام 1996، ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية بطهران. علوي/ اللاذقية.
2- العميد المتقاعد محمود الصالح: كان يرئس مركز البيئة التابع اسمياً لوزارة البيئة، وفعلياً للمخابرات الجوية. ويقع مقرّ المركز في حيّ المزّة فيلات بدمشق،
بعد مكان إقامة رئيس الوزراء بـ500 م، على نفس الصفّ. لم تكن على باب المركز أيّة لافتةٍ أو لوحةٍ تشير إلى طبيعته، لكن عُلقت عليه مؤخراً لوحة: وزارة البيئة – مركز تحليل المياه.
3- النقيب محمد بلال: المخابرات الجوية، فرع تحقيق المزة. علوي/ القرداحة. التحق بالملف عام 1997.
4- الدكتور معن العظمة: مختصٌّ بالكيمياء في مركز البحوث العلمية. استدعي من ألمانيا عام 1993، وقُدّمت له إغراءاتٌ كبرى. ولم يكن يعلم حين قدومه أنه سيعمل في هذا الملف، ولكنه استمرّ على رأس عمله حتى نهاية التسعينات. كان حاضراً في التجارب التي أجريت عام 1995 في حقل الرمي بمطار السيجال (السين). سنّي دمشقي.
5- خبير من عائلة الآلوسي الكردية الدمشقية.

بعض صفّ الضباط الذين عملوا في تجارب الوحدة 417:

1- المساعد أوّل محمد حربا: يقيم الآن في مساكن المعضمية. تعاقد مع إدارة البحوث العلمية بعد بلوغه سن التقاعد من الجيش. علوي/ عين شقاق.
2- المساعد أوّل محمد سلوم: علوي/ طرطوس/ القدموس.
3- المساعد أوّل فؤاد كاسو: استلم لاحقاً أمن السفارة التشيكية ثم الكورية الشمالية. علوي/ ريف اللاذقية.
4- المساعد شيرين خوت: يقيم الآن في رومانيا. شركسيّ/ القنيطرة.

5- الرقيب أوّل إلياس حرب: مسيحيّ/ مشتى الحلو/ جويخات.
لم تتوقف التجارب الكيماوية على البشر بعد إيقاف العمل في الوحدة 417 عام 1989، إنما تغيّرت طريقة إجراء التجارب بعد تعدّد المواقع المختصّة بتصنيع المواد الكيماوية. والتي يمكن الحديث عنها في حلقاتٍ قادمة.